# الباب الثاني:

# الصراع الخارجي

الفصل الأول: الصـــــــــــــراع بين الفرد والمجتمع

الفصل الثاني: صراع الطبيعـــــة (بين الغاب و المدينة)

الفصل الثالث: الصـــــــــــراع بين الأمة و الاستعمار

# الفصل الأول

# الصراع بين الفرد والمجتمع

## 1.2: الصراع بين الفرد والمجتمع

الإنسان اجتماعي بطبعه... فعن طريق المجتمع يتلقى خبرات الحياة، ويتلقن اللغة ويرث مناهج السلوك، ويتطلع من خلال معاناته للحياة الاجتماعية إلى الجديد في الفكر والسلوك... (والإنسان المنعزل عن سائر البشر، لا لغة له ولا فكر، ولايدخل دائرة البشرية إلاّ حينما يندرج في مجتمع أيًّا كانت درجة ذلك المجتمع من الحضارة والبدائية)[1]. والإنسان متمرد على نظم المجتمع وقوانينه، المتطلع إلى نظم أرقى وقوانين أكثر عدالة، وقد سبق المجتمع في درجة رقيه، أوقد أينعت في نفسه ثمرة الارتقاء التي تظل بذرتها دائمة الحنين إلى النضج في قلب المجتمع.

(وقد كان الرومانتكيون يتطلعون إلى سعادة حرمهم إياها المجتمع وما له من قوانين، ففي المدينة يقوم المجتمع الزراعي والصناعي على أسس من المظالم، حيث فقد الإنسان سعادته الفطرية الأولى)[2].

(والرومانتيكيون يكادون يجمعون منذ البداية على أن الأدب الصحيح هو أدب التحرر و الانطلاق أو أدب الكشف والريادة، فطفقوا ينعون على الناس قيودهم، وعلى المجتمع نظمه وتفكيره، فكانوا أول ثائر به في هذا العصر)[3].

فقد أخذ الشعراء العرب في العصر الحديث يفكرون في جوانب النقص الشائعة في حياة المجتمع العربي وبذلك تحرر من قيود الذاتية وبدأ يحلق في أجواء بعضها سياسي وبعضها اجتماعي، فإذا بالشاعر لا يعيش لنفسه بل يعيش للمجتمع, فاستطاع أن ينفصل عن عالم الفردية, ويلتحق بمحيط أوسع يتصل بحياة الناس ممن حوله يحس بآمالهم وآلامهم ويعبر عنها في شعره, فكان لنا هذا الشعر الاجتماعي الذي ذاع وشاع لكي ينهي تعقيد الحياة, وكثرة المشكلات الاجتماعية.

وقد تآلف المغتربون خارج بلادهم ولم يكن ذلك موجودًا في أرض الوطن، بسبب الفوارق الاجتماعية والطبقية والتمييز الطبقي المتمثل في النظرة الفوقية للطبقة الميسورة تجاه الطبقة الأقل حظًّا، وللتشبث بالألقاب، حتى ولو أطلقت على حطام أجوف، والتكالب

---

[1] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 254.
[2] - الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، ص109.
[3] - الرومانتيكية و الواقعية في الأدب (الأصول الأيديولوجية)، د. حلمي مرزوق، ص 15، دار النهضة، بيروت،1983.

على اقتنائها معظم الناس لايرحمون من تغيرت عليه الحال، ولكن الذين يتميزون بالأصالة والخلق السمح، يعفون عند المقدرة ويرحمون عزيز قوم ذلّ، بالإضافة إلى التشبث بالمركز الاجتماعي فقد قبل كثير من الناس القيام بأعمال بسيطة في الغربة ما كانوا ليقبلوا القيام بها في أوطانهم، وقد اهتدى الرومانتيكي العربي على إثر تحليله لما كان يتخبط فيه وطنه من مشكلات و ما كان يجابهه من قضايا اهتدى إلى أن التخلف والحيف الاجتماعي هي الآفات الكبرى التي نشأت عنها المشكلات والقضايا الاجتماعية[1].

فالدوافع الاجتماعية تتمثل فيما يطرأ على المجتمع من مظاهر التغيير والتبديل لأنماط الحياة ومكوناتها وللبنية الاجتماعية والتكوين الحضاري والأيدلوجي، والشاعر المبدع كغيره من أفراد المجتمع، فهو أول من دخل في صراع مع المجتمع، وإن كان يمثل شريحة مثقفة يتأثر ويؤثر في الوسط الذي يعايشه، فإذا رأى أن الإطار الإجتماعي ومكوناته أصبح عاجزًا عن مواكبة الركب الحضاري المتقدم في حقبة زمنية ما أحس في داخله برغبة في التغيير، وأن هناك هاجسًا داخليًّا يوحي إليه بل يشده إلى خلق نمط جديد ولون مغاير لما سبق ليسد الفراغ الذي نشأ بفعل التصدع القوي في البنية الاجتماعية للأمة، ولم يكن أمام الشاعر ما يعبر عنه عن هذا التغيير المُلحّ الذي يؤيده إلا بالشعر، فهو أداته ووسيلته التي يملك زمامها وله حرية التصرف فيها فيصب عليه تمرده وثورته مبدعًا وخالقًا ومبتكرًا ومغيرًا ومجددًا كيفما تمليه عليه النزعة الداخلية لأعماق النفس تعبيرًا عن ذاتية نزعت إلى التغيير والتحرر في البناء الاجتماعي المتصدع ومعطياته ومكوناته الأساسية لما تقتضيه سبل الحضارة وعوامل التطور.

أما نظر الرومانتكيين بعدّهم أفرادًا تجاه المجتمع، فقد كانوا يعتقدون أن نظم المجتمع أفسدت الطبيعة الخيرة في الإنسان، ومن هنا دخلوا في صراع مع المجتمع بحيث لم تتوفر له حرية التعبير عن الإرادة العامة ذات الطابع الإنساني العالمي، ولهذا أساء الرومانتيكيون بمجتمعهم الظنون؛ وها هوذا فيكتور هوجو في مقدمة مسرحيته (أنجيلو) قائلًا: (**المجتمع في واقعه أحمق**)، ولذا يسمو الفرد عندهم بمقدار تحرره من آثار المجتمع وتقاليده، إذ يظل في

---

[1] - ينظر أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، فؤاد فرفوري، ص168، دار العربية للكتاب، طرابلس – ليبيا، 1988.

صراع دائم مع القواعد ويظل بعد ذلك خيرًا فاضلًا نقي الدخيلة طبقًا لقواعد الخلق الطبيعي (الإلهي)[1].

ومما لاريب فيه أن شاعر المهجر يقف من المجتمع العربي موقف المتمرد، وإن كان هو ثمرة هذا المجتمع، وكان هذا المجتمع هو الذي أنضج هذه الثمرة، واحتضن بذرتها طويلًا في أعماقه.... فلا انفصام بين المجتمع والفكر المتمرد عليه، لأنه - أولًا وأخيرًا- ابن بيئته، وثمرة نضالها الشاق، ولقد نشأ شاعر المهجر في مجتمع متفسخ، انحدرت فيه رسالة بعض رجال الدين إلى اهتمامات مزيفة بطقوس العبادات، وبعدٍ تام عن روحها ومرامها، (فكان شاعر المهجر متمردًا على سلطة بعض رجال الدين، متمردًا على سلطة الاستعمار، متمردًا على التقاليد التي تعوق تقدم الشعب وتطوره، متمردًا على فقدان العدل الاجتماعي في المجتمع، هذا وبالإضافة إلى الطائفية والحزبية والمآرب والأهواء التي كانت تزيد الأمة انقسامًا والمجتمع تمزقًا)[2].

وكان أول ما فتح عليه الشعراء أعينهم، الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الغالبية العظمى من أبناء الأمة العربية في فقر مدقع، ولقد حظي الفقر بعناية الشعراء وأهتمامهم، فخاضوا في أبعاده الإنسانية والاجتماعية، محاولين أن يرسموا الطريق للخلاص منه، حاملين على الغنى حملة لاتقل في عنفها عن حملتهم على غيره من الأعداء الإنسانية وشرورها[3].

(فشعراء المهجر دعوا إلى تحرير الإنسان من ربقة الطقوس الدينية، والتقاليد الاجتماعية ودعوا إلى تحرير الوطن من الاستعمار)[4]، وسأفصّل القول في فصلٍ آخر من هذا البحث عن الصراع مع الاستعمار، أما الشعر الاجتماعي فهو شعر هادف وبناء يستقي موضوعاته من مجتمعه وبيئته المحلية, أو من المجتمع الإنساني, وغرضهِ إصلاح الأوضاع الاجتماعية السيئة عن طريق تشخيص الداء وتحديد سببه و وصف دوائه, ويلجأ بعض الشعراء إلى أسلوب الترغيب والتنفير فهم يرغبون شعوبهم فيما يسهم في ترقيتها وتمدنها وينفرون من الأوضاع التي تقوض دعائم نهضتها, ويقبل الشعراء على استعمال أساليب

---

[1] - الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، ص112.
[2] - ملامح الشعر المهجري، د. عمر الدقاق، ص49.
[3] - ينظر معالم التجديد في الشعر العربي الحديث، د. سعد أحمد الحاوي، ص8، عباد الرحمن للطباعة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2008.
[4] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص68.

الإقناع لتحقيق مراميهم مثل إجراء موازنة بين نتائج التمادي في الغي, والانصراف عنه وتعريف الناس بحقوقهم وسبل المطالبة بها, وجلب الانتباه إلى ما أحرزته بعض الشعوب المتقدمة في المجال الاجتماعي، بخاصة نصوصهم التي تميّزت عن نزعة إنسانية تتعالى عن العرق والعقيدة والمذهب، وتدعو إلى عالم يعمّه السلام وتسوده المحبة، والتنديد بالحيف الاجتماعي لإقامة علاقة بين الناس تقوم على أساس العدل والمساواة[1].

ومن قضايا التحرر الفكري والاجتماعي لدى شعراء المهجر:

**أولًا: العبودية و الإستبداد**

**ثانيًا: الإنسان**

## أولًا: العبودية

لقد كان المهاجرون أبناء وطن اجتمعت عليه نوائب الزمن....فخنقت فيه الخلافة العثمانية كل نسمة للحياة، وتربص به مستعمرون آخرون للسيطرة عليه، و ورث المجتمع فيه بجانب الظلم الاجتماعي، والتسلط، وانتهازية بعض رجال الدين طائفة من التقاليد الاجتماعية ترجع إلى عصور الجهل والظلام وتؤكد قيم الخضوع للظلم، وللسادة التقليديين.

(ثم كان المهاجرون، في أمريكا، أول الأمر، أبناء جالية تعيش كما يعيش المنبوذون، وتتلمس السبيل إلى وضع اجتماعي كريم، تحيا فيه على قدم المساواة الإنسانية مع أبناء الوطن الجديد)[2].

فقد اطلعوا على عبوديات جديدة طالعونا بها بما أفاء عليهم به المهجر من مدد الفكر والإغراق في التأمل وقسوة الحياة الاجتماعية في دار الهجرة والاغتراب[3]، فقد أراد جبران ان يسود في المجتمع المحبة الصادقة ليحيا سعيدًا فيه، (لكنه رأى الأغنياء يطغون وكذلك بعض رجال الدين يتغطرسون، ورأى الأقوياء يسيطرون والضعفاء يخنعون، رأى الساسة يتلاعبون بأماني الأمم والجهال يتحكمون بمصائر الشعوب، رأى المجتمع تُكبّله التقاليد، رأى الدين تحجره العقائد)[4].

---

[1] - في الأدب العربي الحديث، ظواهر أدبية ومقاربات نقدية، أبو زيّان السعدي، ص70، دار العربية للكتاب، ب. ط. ، تونس، 2007.

[2] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 67.

[3] - ينظر أدب المهجر بين أصالة الشرق و فكر الغرب، د. نظمي عبدالبديع محمد، ص313.

[4] - الرومنطيقية، د. عيسى بلاطة، ص102.

(وكان الدين تبعًا لذلك أبرز ما تجلى تجاهه التحرر الفكري لدى الشعراء المهجريين سواء كانوا الشماليين أوالجنوبيين، لقد ندد الشعراء تنديدًا بالغ التطرف ببعض رجال الدين وكشفوا الزيف كثير من البدع في المجتمع الشرقي)[1].

فيقول جبران إن كل الناس عبيد للمتجبر-العصي على الخضوع- يخضع غيره ولايَخضع هو لأحد:

**خُلِقَ النَاسُ عَبيدًا  للّذي يَأبَى الخُضوعْ**
**فإذا مَا هَبّ يوْمًا  سائِرًا سارَ الجَميعْ**[2]

لقد حمل جبران على السلطة الاجتماعية المستمدة من شرائع وتقاليد سنها البشر التي توارثها الخلف عن السلف، حمل حملةً مركزة غير مستثنٍ أيّ وجهٍ من وجوهها، وكانت تلك الفترة فترة الصراعات بين الكاثوليك والبروتستانت من جهة، والكاثوليك والأرثودوكس من جهة أخرى، تبادلوا في أثنائها حملات نقدية على صفحات مجلاتهم، ولاشك أن جبران أفاد من هذا الجو المحموم ليشن هجومه على الكهنة وبعضٍ من رجال الدين[3].

يقول محمد بنيس في كتابه الشعر العربي الحديث: (وأبرز من خاض الصراع بين الشعري والديني هو جبران خليل جبران بامتياز، حيث وجد من المؤسسة الدينية (المسيحية) ما يتعارض مع الشعري)[4].

فقد صبّ جام غضبه على بعض رجال الدين والكهنة غير تاركٍ صفةً إلا ألصقها بهم، دون استثناء: (أتعرفون أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصيًّا على أقدس أسرار نفوسكم؟ أسمعوني فأبين لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره...هو خائن ..هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفًا وينام مطمئنًا، وعند مجيء الظلام يثب على النعاج و يخنقها نعجة إثر نعجة...)[5].

---

[1] - ملامح الشعر المهجري، د. عمر الدقاق، ص241.
[2] - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)،تقديم وإشراف ميخائيل نعيمة، ص353.
[3] - ينظرجبران خليل جبران، فؤاد برانكس، ص42.
[4] - الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها، محمد بنيس، ج4 مساءلة الحداثة،ص120، دار توبقال للنشر،الطبعة الأولى، دار البيضاء- المغرب،1991.
[5] - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، (خليل الكافر)، تقديم ميخائيل نعيمة، ص129.

ويقول جبران في (المواكب):

**وأكثرُ النَاسِ آلاتٌ تُحرّكهُـــا أَصـــابعُ الدّهرِ يَومًا ثُم تنكسرُ**[1]

(هنا جبران يشير إلى أن الناس تحس بالزمن وتقلبات الفصول ويسر الأيام وتعاقبها بالفصول التي تتلون من خلالها الحياة، وأن الناس كلهم عبيد الله وليسوا عبيدًا للأشخاص. وأراه في هذا يشير إلى ظهور العنصرية في بداية المجتمع الأمريكي، وكانت ضد شباب أفريقيا الذين ذهبوا للعمل هناك، وقد أحس جبران بالظلم، والاستعباد للأفارقة، فأراد أن يشير إلى هذا في وضوح)[2].

وكذلك يقول في العبودية: (لقد جبت الأرض ومغاربها ولكني لم أرَ للآن غير رقاب موثقة بالسلاسل وركب جاثية منحنية تحت الأثقال وسواعد موثقة بالسلاسل وركب جاثية أمام الأصنام)[3].

(أما إيليا أبو ماضي فيرى الإنسان في قمة مجده المغري ليس في حقيقة أمره غير عبد للناس كلهم، وعبد لحطام الدنيا الزائل، ويسوق كل هذا في صورة لطيفة)[4]:

**أبغي الثراءَ، وَلَمْ يَكُنْ مِن مَطلـبي وَأرَى الجَمَالَ بِناظِرٍ مُتَعَـــــــامِ**
**وَأَشيدُ مــثلَ الناسِ، مَجْدًا زَائِفـًا وَأشُـــــــدُّ حَوْلَ الروحِ ثوبَ رغَامِ**
**فَإذا أَنا وَالأرضُ مِلكي وَ السمـــا، قَد صرتُ عبدَالناسِ، عبدَ حُطامي**[5]

والذي أقنعه بتلك الحقيقة عميق النظرة لما وراء المظاهر الزائفة، وأبو ماضي هو صاحب تلك النظرة الكفيلة برؤية الدود خلف الإثمد.

(وألقى أمين الريحاني كلمته الأولى في رجال الدين حينما أتيحت له فرصة الخطابة في نيويورك عام 1898م) [6]، ومن ثم بدأ يشن حملاته المنظمة العميقة على الدين حينًا،

---

[1] - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، من(قصيدة المواكب)، تقديم ميخائيل نعيمة، ص361.
[2] - النص الأدبي في العصر الحديث بين الحداثة والتقليد، د. عبدالرحمن عبدالحميد علي، ص89، دار الكتاب الحديث للطباعة و النشر، ب. ط، القاهرة، 2005.
[3] - كما ورد في الرومنطيقية العربية، الفلاح الشاذلي، ص87.
[4] - كما ورد في أدب المهجر، بين أصالة الشرق و فكر الغرب، د. نظمي عبدالبديع محمد، ص314، من أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، جورج صيدح، ص288.
[5] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (بين مد وجزر)، ص418.
[6] - كما ورد في التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص68، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، جورج صيدح، ص234.

وعلى بعض رجاله حينًا آخر الذين كانوا يحاولون أن يتّجروا بالنفوس البشرية وجعلهم تحت وطأة العبودية..[1] وموضوع القيم الاجتماعية على وجه الخصوص التي تولد من رحم دينية وتراكم معرفي وممارسات حيوية تنتج أعرافًا وتقاليد معينة، يكون لها دور محوري في تحديد توجهات الفرد وتحيّزه حيال مختلف القضايا والأفكار والتنظيمات الاجتماعية.

وقد شن حملةً على أسس العقيدة المسيحية وأنكرها (أنتم تنددون بعبادة الأصنام، وتعبدون بنفس الوقت الصور والتماثيل، ثم تحاولون مقاتلة النواميس الطبيعية).[2]

ولكن هذه الثورة على الدين في أسسه وطقوسه وكهنته لم يهدأ لها أوار في شعر المهجر، بل أذكى لهيبها قلم أشد ثورة، وأعنف طعنًا، هي تلك الرؤية الثورية، والتحرر من سلطان الدين والتقاليد الاجتماعية التي كانت من أهم السمات البارزة في الشعر المهجري.

وفي المهجر الجنوبي أول ما لفت أنظار الشعراء من المشكلات الاجتماعية التعصب الديني، والتباين الشديد في العقائد، والحواجز التي يصطنعها بعض رجال الدين للتفريق بين أصحاب الديانات المختلفة، وأصحاب المذاهب المختلفة في الديانة الواحدة أيضًا، وقد أدركوا جميعًا أن هذا التمزق الديني هو الذي جرّ عليهم كل الويلات التي يعانون منها على مر السنين[3]، ففوزي المعلوف استعبدته الحياة بكل ضروبها، وبعديد ما حوته من مظاهر استحكمت فيه -ولايرجى له فكاك منها- لأنها عبودية عمياء، صيرته مع سائر الأحياء عمياء، فغدا كل من في الكون أعمى منقادًا لأعمى وهو مرغم حتى في انقياده للقائد الأعمى، يقول[4]:

**أَنا عبدُ الحَياةِ وَالموتِ، أَمشـــي  مُكرهـًا مِن مُهودِها لِـــقبورِهْ!**
**عَبدُ ما ضَمَّتِ الشَرائعُ مِن جَـوْرٍ  يَخُطُّ الـــقَـويُّ كُـــلَّ سطورِهْ**
**بيَراع دم الضَعيفِ لَهُ حِـــــبْرٌ  وَنَوْحُ الـمَظلومِ صَوْتُ صَرِيرِهْ!**

***

**أَنَا فِي قَبضَةِ العُبودِيَّةِ العَمْيـــاءِ  أَعـــــــــمى مسيَّرٌ بِغُرورِهْ!**

---

[1] - ينظر التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 68.
[2] - السابق، ص 69.
[3] - ينظر العصبة الأندلسية، هجرة الأدب العربي إلى أمريكا الجنوبية، د. نعيمة مراد، ص 134.
[4] - ينظر أدب المهجر، د. عيسى الناعوري ص 94.

**كُلُّ مَا بِي فِي الكَونِ أعمىً ومُنقادٌ عَــلى رُغمــهِ لأعمى نَظيرِهْ**[1]

إن صورة تعيد الحياة لـ(فوزي) مهما كانت قاتمة ولكن مداها ممتد، وتبدو أكثر عمقًا، وتظهر أوفي وأتم لما فيها من نظرة تأملية مستوعبة لكل ما في الكون، وللشاعر الحرية في النظر إلى الحياة وأن يعدّها استعبادًا بكل ما فيها من صور التملك والتبعية[2].

(ولقد كانت الظروف الدينية الخاصة التي مر بها كل من لبنان وسوريا والصراعات الشديدة سببًا في هجرة كثيرين من أبناء هذا الوطن، والوصول إلى عوامل الخلاف بينهم، ولكن عرف هؤلاء الشعراء أن الدين ليس مذابح وصراعات وإشعال فتن، بل إنه بذل وجد وعطاء)[3].

وينفر فوزي المعلوف من العبودية، ويعلن الحرب والنفرة التي تدعو إلى هجرة الوطن فيقول:

**قَسَمًا بِأَهْلِي لَمْ أُفَارِقْ عَنْ رِضىً أَهْلي وَهُمْ ذُخْرِي وَكُلُّ عِمَادِي**
**لَكِنْ أَنِفْتُ بِأنْ أَعِيــشَ بِمَوْطِنِي عَبْـدًا وَكُنْتُ بِهِ مِنَ الأَسْيَادِ**[4]

ويبرأ الأسوياء من الناس من الاستعباد لما فيه من ذل ومهانة ويرفضونه، ولكن فوزي يفاجئنا بأن هناك من يستعذب هذا اللون من الذل، ويراهم الخونة لأوطانهم حلفاء الاستعمار فيقول فيهم:

**وَاسْتَعْذَبُوا ذُلَّ القُيُودِ، فَأَصْبَحُوا يَتَفَـاخَرُونَ بِنِيرِ الاسْتِعْبَادِ**[5]

ولا يكاد يبدو من يهتم منهم بالجمال الآسر المستعبد على طريق المشارقة غير لمع عند (القروي) يريد أن يغمرنا بها الكون فيقول:

**مَنْ لِنَفْسٍ تَودُّ لَوْ تَغمرُ الكَوْ نَ هُيَامًا بِحُسْنِهِ المَعْبُود**[6]

---

[1] - على بساط الريح، فوزي المعلوف، من قصيدة (العبد)، ص12.
[2] - أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب، د. نظمي عبدالبديع، ص313.
[3] - العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص134.
[4] - ديوان فوزي المعلوف، من قصيدة (الأهل أهلي و البلاد بلادي)، ص10.
[5] - السابق، ص10.
[6] - ديوان القروي، من قصيدة (عناق الوجود)، ص712.

## ثانيا: الإنسان:

تأثر جبران حينًا من الزمن بأفكار نيتشته، وبأسلوبه العنيف الناعي على البشرية ضعفها واستكانتها، وخلودها إلى تقدير مثل الضعف في الإحساس والخور في الطبيعة كالشفقة والرحمة...ولقد شرع جبران حقًّا، وربما أكثر من زميليه الريحاني و نعيمة في القيادة الفكرية، وشرع بحرارة أسلوبه، وفيض حماسته في أدب المهجر، الاهتمام بالإنسان كالفرد في المجتمع، الإنسان البسيط (ابن الفطرة وابن الطبيعة، أكان راعي أبقار، أم كان حارثًا أم عاملًا لاسلاح في يده غير المعول)[1]. فإن تعاطف جبران مع آلام الإنسان، ووقوفه ضد الفقر، وضد الذين يشوهون الإنسان ماديًّا وروحيًّا في المجتمع، يظل في حدود المشاعر الجياشة، دون الارتكاز على أسس فكرية تستند إلى المفاهيم العلمية التقدمية... وقد ظل هذا طابع الإحساس بالإنسانية في شعر المهجر كله، فهو أدب خالص صادر عن وجدان فياض بالعاطفة، ما يعمق نظرته إلى الواقع، ويصل به إلى جذور المشكلات الاجتماعية التي يعانيها الإنسان[2].

(فقد تلقى الأغنياء من السهام العدائية الجبرانية العدد الأوفر سواءٌ أكانوا حكامًا سياسيين أم أثرياء عاديين، وقد اتخذ انتقاضه عليهم ثلاثة مسارب هي: إبراز حقارة الغني النفسية حيال سمو الفقير الروحي، وإشقاء الغني بماله، وإشقائه بحبّه)[3]؛ لأنه أراد أن يبني عالمه الأمثل ومجتمعه الأفضل على أسس الخير والمحبة وعلى أركان من الحق والجمال[4].

(منذ البداية كان جبران مأخوذًا بهاجس التغير ولايكون ذلك حسب رأيه إلا بالرفض والتمرد على المجتمع والواقع والخروج من الجهل والكسل والفقر، وأول حلّ لتحقيق ذلك هو القضاء على التفاوت الاجتماعي والفوارق الطبقية في المجتمع، والحد مما تعانيه الفئات الفقيرة من الاضطهاد والظلم)[5].

ولعل ما يعبر أصدق تعبير عن هذا الطابع هو كلمة (المحبة) المحبة للإنسان أيّان كان لونه وجنسه ودينه وموطنه على نحو مايصوره جبران في قوله: (لاتقنطوا...فمن مظالم هذا العالم، من وراء المادة، من وراء الغيوم، من وراء الأثير، من وراء كل شيء، قوة هي

---

[1] - المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، ص21.
[2] - ينظرالتجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص257.
[3] - جبران خليل جبران، في دراسة تحليلية، تركيبية لأدبه ورسمه و شخصيته، فؤاد برانكس، ص47.
[4] - ينظرالرومنطيقية، د. عيسى بلاطة، ص 102.
[5] - الرومنطيقية العربية، الشاذلي الفلاح، ص87.

كل عدل، وكل شفقة وكل حنو، وكل محبة...سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياةً جميلة)[1].

الإحساس بالظلم الذي وسم أدب الرومانتيكيين عامة كان ينبع من المجتمع المحيط بهم، فالظلم عمّ مجتمع جبران، وعمّق أغوار المأساة في قلبه وجعله يعلن الحرب على مجتمعه، يقول: (رأيت الفقراء المساكين يزرعون والأغنياء يحصدون ويأكلون، والظلم واقف هناك يدعونه الشريعة) [2]، كل هذا الإحساس بالظلم غذته لامحالة الظروف الاجتماعية المحيطة به.

ويقول جبران في تناقض اجتماعي يثيره كثيرًا إلى درجة أنه يقول إن السجن للضعاف وإن كبروا فلهم المجد والفخر والعدل الضائع:

**و َالـــــــعَدلُ فِي الأرْضِ يَبْكي الجِن لَوْ سَمعوْا**

**بِـــــــهِ وَ يَستَضحـــكُ الأمْوات لَوْ نَظَروا**

**فَالسْجنُ وَ المَوتُ للجَـــانَيـــنَ إنْ صَغَـــروا**

**و الـــــــــمَجْـدُ وَ الفَخْرُ والإثرَاء إنْ كَبَروا**

**فَســـارقُ الزَهْـرِ مَـــذمُـــوم وَ مُحْتقـــر**

**وَسَـــــــــارقُ الحَقْلِ ء ال البَـاسل الخَطر**

**وَقَاتـــــلُ الجْســـــم مَقتُـــول بِفعـلَتـــهِ**

**وَقَاتِـــــــــــلُ الرُوحِ لاتَدري بِهِ البَشَر[3]**

فالألفاظ هنا تتناسق مع جو التجربة التي سيطرت على الشاعر فهو في صراع مع التناقض الاجتماعي[4].

ومن المميّزات الأكثر أهمية في أدب جبران (تلك الرسالة الاجتماعية التي تتوغل في الأواسط المختلفة وتنتقي الموضوعات المتنوعة لتتحدث عن الإنسان ومشاكله ومعاناتهِ في وجهيه الخاص والعام، ولقد كانت المرأة والإقطاعية والدين والعمل والأبناء والعطاء والظلم والفساد والمدينة والتأخر والجهل، كانت هذه وسواها موضوعات التقطها جبران من الحياة

---

[1] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، ص343.

[2] - كما ورد في الرومنطيقة العربية، الشاذلي الفلاح، ص89.

[3] - المجموعة الكاملة جبران خليل جبران، من قصيدة (المواكب)، ميخائيل نعيمة، ص355.

[4] - ينظر أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص114.

الاجتماعية)[1]، فصراعه مع المجتمع يعتمد على الأسلوب غير المباشر الذي اشتهر به أيضًا أبو ماضي وذلك في قصيدة (الطين) وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر شعر سُمّي (الشعر الاجتماعي التحرري) كان يتناول توعية الجماهير.

(وأبو ماضي قليلاً ما يتفلسف تفلسفًا مجردًا، فهو إنسان ذو خلفية علمية ولذلك نحس بأن معظم آرائه في الإنسان، نجدها متناثرة بين مجموعة من القصائد كل قصيدة تعبر عن تجربة معيشة يتخذ فيها الشاعر موقفًا محددًا من الحياة والإنسان)[2]...ففي قصيدة (الطين) يخاطب أبوماضي الغني المتكبر قائلاً:

**يَا أَخي، لاَتَمِلْ بِوجهكَ عَنّـي، مَـــــا أنَا فَحْمَةٌ وَلا أَنْتَ فَرقَد**

***

**أنتَ مثلي مِنَ الثَّرى وَإليـــــهِ فَلِمــاذا يَاصاحبي التيهُ وَ الصَّد**

**لَستُ أدري مِن أَينَ جِئتُ وَ لاما كنـتُ، أوما أكونُ يَاصاحِ في غَد**

**أَفتَدري؟إذَنْ فَخَبّـــــــرْ، وإلاَ فَـــــــلِمَاذا تَظُنُ أنّكَ أوحَـد؟[3]**

ففي هذه الأبيات المعدودة يحشد أبو ماضي جماع ما له في وحدة الجوهر الإنساني في كل فرد وآخر من أبناء البشرية، ويوضح يقين النشوء من الثرى والعودة إليه، لاتدري من أين جاء ولاماذا سيكون، وفي هذا الموقف المهين من العجز يتساوى كل إنسان مع الآخر، لأن المعرفة مسلوبة منهم جميعًا في ذلك الجانب، ولأنهم يتساوون في ضعفهم وعجزهم مع أقل الموجودات شأنًا، بل أضعف الموجودات لتبزهم أحيانًا بقدرات خاصة بها، يقول ميخائيل نعيمة في كتابه الغربال الجديد: (القصيدة تدور في معنى واحد ينفذ إلى لبّك منذ الأبيات الثلاثة الأولى منها ولكنك تضن ببيت واحد من أبياتها السبعة والخمسين، ذاك لأن في كل بيت صورة جديدة تزيد في قيمة التي قبلها و التي تليها، وأنت إذ تتأمل هذه الصور المتعاقبة، لاتشعر بأقل ملل بل ترغب في الزيادة، فكأنك في متحف من الفن العالي)[4].

---

[1] - الأدب العربي الحديث نماذج ونصوص، د. سالم المعوش، ص587، دار الموسم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت،1990.

[2] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص260.

[3] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الطين)، ص39.

[4] - في الغربال الجديد، ميخائيل نعيمة، ص 146، مؤسسة النوفل، الطبعة الرابعة، بيروت، 1988.

وإن شاعرية إيليا الخصبة وإنسانيته الرحبة تدخلان في صراع الإنسان والإنسان، فالإنسان تذهله قوته عن الالتفات إلى أصله المهين الحقير، فيتألّه ويتكبر، وتملأ نفسه طاقة لاحد لها من الخيلاء والزهو والاستعلاء على الناس، وهناك الإنسان الضعيف الفقير الذي غلبه على أمره قسوة الحياة، ولكن مع ضعفه وفقره يستشعر قيمة ذاته، وجوهر إنسانيته من خلال إيمانه العميق بأن الله واهب الحياة ومانح الأرزاق، قد منح أبناء البشر أقدارًا متساوية، فلا فضل لغني بغناه، ولا جريرة لفقير في فقره، فقد وقف إيليا أبو ماضي موقف الشاعر الإنسان الذي يحطم الكبرياء الزائفة في نفس صاحبها، ويرسم خطوط هذا الصراع باقتدار فني خصب يكشف عن كافة الزوايا والأبعاد التي تمجد الإنسان أو الفرد في المجتمع، مع تحطيم الفروق الزائفة الصانعة من قبل المجتمع[1]، وفي بداية القصيدة يقول:

**نَسيَ الطينُ سَاعَةً أَنّهُ طينٌ، حَقِيرٌ، فَصـــار تِيْهًا وَعربَدْ**
**وَكَسَى الخزُ جسمَهُ فَتبَاهَى وَحَوى المَالَ كِيسُهُ فَتَمَردْ[2]**

والقصيدة تعد أنشودة إنسانية خالدة، فتجربة الإنسانية واضحة فيها، ويوحى الشاعر بكل ما يريد أن يصوره من معاني هذا الصراع ومواقفه من خلال المساءلات والمقابلات التي تتلاءم مع طبيعة المضمون الشعري الذي تقوم عليه التجربة، (الشاعر يستخدم كلمة (الطين) في الدلالة على الإنسان ليرمز بذلك إلى أصله، فيهدهد ذلك من غروره ويطامن كبرياءه)[3].

ويقف إيليا في دور العاطفي الخاضع للتناقض في نظرته للإنسان، فهو في ظل الأخوة يثور على الأغنياء من أجل الفقراء، ويمجد الشفقة والرحمة والعطاء، (ويقيس الإنسان بالطبيعة، فإن شاء أن يعلّمه الحب والتضحية لفت نظره إلى الغاب، وحدثه عن النهر والزهرة والغدير، وإذا أراد أن يثبت عجز السلطان الجائر)[4]، قال على لسان الشاعر:

**وَمَرَرْتُ بالجَبل الأشمِّ فما زوى عنـــــــي مَحَاسِنَهُ وَلَستُ أميرا**
**وَمَرَرْتَ أنتَ فما رَأيتَ صُخوره ضحكـــــتْ وَلا رَقَصَتْ لَدَيْك حبورا**

---

[1] - ينظر حركة التجديد الشعري في المهجر، د. عبدالحكيم بلبع، ص167.
[2] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الطين)، ص581.
[3] - حركة التجديد الشعري في المهجر، د. عبدالحكيم بلبع، ص170.
[4] - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د.نجم يوسف، ص92،93.

وَلَقد نَقَلتُ لِنمله مـــــا تدّعـــي ... فـــــــــتَعّجبتْ، مِمـا حَكيتُ، كثيرا
قَالت: صديقك ما يكون؟ أقشعمًا ... أم أرقمـــــــًا؟ أم ضيغمًا هـصورا؟
أَيَحُوكُ مثلَ العَنْكَبوتِ بيوتَـــــهُ ... حَوْكـــــًا، وَيَبني كالنّسور و كورا؟
هل يملأ الأغوار تبرًا كالضحـى ... ويـــــــــردُّ كـالغيث المـواتَ نَضيرا
أيلفّ كالليلِ الأباطحَ و الربـــى ... و المنزلَ الـــــمعمورَ و المـهجورا؟
فأجبتها: كلاّ! فقالت: سَمّـــــهِ ... في غير خوفٍ (كائنًا مغرورا !) [1]

وفي قصيدة (الفقير) التي صرح فيها بأنه ما وقف موقفه هذا إلا ليندب أحوال التعساء من مجتمعه، (يقول فيها أبو ماضي مظهرًا تألمه وتحسره لإخوانه المحتاجين والبائسين)[2]:

همٌّ ألـــــمّ به مع الظلمـــــــاءِ ... فَنَـــــأى بـمُقلتَهِ عَــن الإغْفَاءِ
نَفْسٌ أَقامَ الحُزن بَينَ ضـلوعِهِ ... وَ الحُزنُ نَارٌ غَيــرَ ذَات ضِياءِ
يَرعَى نجومَ الليلِ لَيسَ بهِ هَوى ... وَيـخَالـــــــه كِلفًا بهنَّ الرائي
في قَلْبهِ نَارُ (الخليل) وإنمـــــا ... في وَجْنَتَيْه أدمـــع (الخنساءِ)
قَد عَضّتْهُ اليأس الشَديدُ بِنابِـــه ... في نَفْسِه والجوعُ فِي الأحْشَاءِ

***

وَارَحْمَتا لِلبَائِسينَ فَإنِهـــــــم ... مَــوْتَى وتَحسبُهُم مِنَ الأحْياءِ
إنّي وَجدتُ حظُوظَهُم مُســودّةً ... فَكَـــأنما قُدّتَ مِنَ الظَلماءِ[3]

(ويؤلم أبو ماضي صاحب القلب الشاعري الرقيق أن الأغنياء ما زالوا منغمسين في شهواتهم ملتفتين إلى أهوائهم وملاهيهم، لاتهم صيحات الفقراء حولهم ولاتقلقهم أنات المتألمين، فيغضب عليهم غضبة مضرية ويكتب لهم قطعة شعرية صاخبة مليئة بالسخرية والاستهزاء مطعمة بالوعيد والتهديد، يضع فيها الفقراء أمام الأغنياء، ويسخر فيها من انقسام المجتمعات الإنسانية إلى فقراء وأغنياء وكأن ذلك قدر لامرد له)[4]، يقول:

كُلوا وَاشربوا أَيُّها الأغنيـاءُ ... وإنْ مَــلأ السِّكَـكَ الجائعونْ

---

[1] - الخمائل، إيليا أبو ماضي ، من قصيدة (الشاعر والملك الجائر)، ص226.
[2] - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة جميل السراج، ص138.
[3] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الفقير)، ص211.
[4] - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص139.

وَلاتلبسوا الخَزَّ إلاَ جَدَيـــــدًا وإن لَبَسَ الــخِرَقَ البائسونْ
وَإنْ سأءكُمْ أَنَّهُمْ في الوجـودِ وَأزعَجُكُـــمْ أنـــهَمْ يُعْوِلونْ
مُرُوا فَتَصُوُلُ الجنودُ علـيهمْ تعلّمهم كَيـــــفَ فَتْكُ المنونْ
فَهُمْ مُعْتَدون، وَهُمْ مُجْرِمُون وَهُم مقلِقونَ، وَهُم ثَائِرونْ[1]

ولهجة القصيدة كلها بهذه الطريقة التهديدية الساخرية التي يخاطب بها الأغنياء البخلاء الذين لايشعرون بمن حولهم من الفقراء والمعوزين، ولكنه ينتقل في نهايتها إلى مخاطبة الفريق المحتاج ويدعوهم إلى الصبر وعدم الشكوى لأن لهم الجنة في حين أن لهؤلاء البخلاء جهنم خالدين فيها أبدًا:

دَعـــــوا الأغْنِياءَ وَلـذَّاتِهــم فَـــهُم مِثل لَذّاتِهم زَائِلـونْ
سَيمسُونَ فِي (سَقَرٍ) خَالـــدينَ وَتَمْسُون فِي جَنّةٍ تنْعَمُـونْ
فَلا تَعْطَشونْ، وَلا تَسْغَبـــــون وَلايَـرتُوون، وَلايشَبَعـونْ
لَكُمْ وَحْدَكم مَلكوت السَمـــــاءِ فَمـا بَالُكم لَستُم تَقْنَعون؟[2]

و لانشعر كثيرًا بانفصال أبي ماضي عن المجتمع في شعره، وذلك واضح لا في دعوته إلى انصاف الفقير واليتيم فحسب، بل في فهمه الدقيق لمعنى المشاركة الاجتماعية، وكان المفروض أن يكون رسالة الشعراء محاولة لتهدئة الصراع بين الفقراء و الأغنياء بدل ما يزرعوا الحقد لدى الفقراء تجاه الأغنياء.

(وفي قصيدة (العليقة) تصوير رائع للنزعة الانعزالية المعوقة، التي تحول جهود الفرد عن إنسانية الفردية أولًا، وعن نفعها للمجتمع ثانيًا)[3]، وقد قال الشاعر للعليقة حين أجذبته:

لاَ تلجّي في اجتذابي، أوْ فلجّي في جـــــتذابي
إنّ عُودًا فِيهِ مَـــاءٌ لَـيْسَ عـــــودًا لاحْتِطَـابِ
أنَا فِي فَجرِ حَيـاتِي، أنَـــــا في شَرخِ شَبابي

---

[1] - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (كلوا واشربوا)، ص338.
[2] - السابق ، ص339،340.
[3] - الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية)، د. إحسان عباس، د. نجم يوسف، ص95.

***

**أنَا لَمْ أضجر مِـــنَ العَيْشِ وَلَمْ أملْ صَحَابِي[1]**

(وكان أبو ماضي يؤمن بأن الإنسان -على مستوى الكون ومستوى الموجودات الأخرى- مخلوق هين الشأن يتجرع مرارة عجزه وجهله وغروره...أما -على مستوى المجتمع- فله تقييم آخر فيقول عن (الإنسان) يكاد يقول لك: تذأب وإلا أكلتك الذئاب)[2]، لأنه يدرك أنه حين يجرد الإنسان من ادعاءاته أمام الكون لايجرده من وجوده في مجتمع متشابك الصلات، والإنسان يحاول التفكير في كل شيء ومنطقته، وإخضاعه للقياسات العقلية، فما دمنا قد وجدنا فما علينا إلا أن نحيا وأن نستمتع وأن نضرب في غمار التجربة بطريقة تلقائية منطلقة[3]:

**فَتَمَتَّعْ بالصُّبْحِ مَـادُمْتَ فِيـــهِ ... لاتَخَفْ أَنْ يَزولَ حَتى يَـــزُولا**

**وَإذا مَـــا أَظلَّ رأسَكَ هَـــمٌّ ... قَصّرِ البَحثَ فيهِ كَيـــلا يَطولا**

**أدرَكَتْ كُنْهَهَا طيورُ الرَّوابـــي ... فَمِنَ العَارِ أنْ تظَـــــلَّ جَهُولا**

**مَا تَراها والحقلُ مِلْكُ سواها ... تَخذّتْ فيه مَسْـــــرَحًا وَمَقيلا**

**تَتَغَنَّى، والصَّقْرُ قد مَلّكَ الجـوّ ... عَلَيْهَا، وَالصـــائِدونَ السَّبيلا**

**تَتَغَنَّى، وَقَد رَأت بَعضَها يُـــوَ ... خَذُ حيّـًا وَالبعضَ يَقْضي قَتيلا**

**تَتَغَنَّى، وعمرُهَا بَعضُ عـــامٍ ... أفَتَبْكـي وَقَـــدْ تَعيشُ طَويلا؟**

***

**كُلُّ نَجمٍ إلى الأفولِ وَلكـــــنْ ... آفةُ النَّجمِ أنْ يَخَـافَ الأُفولا[4]**

إنها دعوة إلى تناسي الحقيقة التي تقول إننا فانون، و تقول إننا ضعفاء، وتقول إننا جاهلون..إنها دعوة إلى الانسياب في الحياة انسيابًا مطلقًا، والإحساس بدفء الجماعة، فوراء التساند الجماعي القيمة الحقيقية للفرد وامتداد وجوده، وازدهار قدراته.

---

[1] - الجداول، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (العليقة)، ص115.
[2] - الجداول، إيليا أبو ماضي مقدمة الكتاب، ص27.
[3] - ينظر التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود ص262.
[4] - إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر، زهير ميرزا من قصيدة (فلسفة الحياة)، ص604،605.

ويقول الدكتور عيسى الناعوري: (إن أبا ماضي هو خير مثال للشاعر الحق بكل معانيه، فهو شاعر في روحه وفي أفكاره وفي عواطفه وخيالاته، وتظهر في شعره صورة الحياة والمجتمع الإنساني)[1].

ويقول جورج صيدح: (أبو ماضي أحدث تجديدًا في الكلمة الشعرية جعلتها تتسع لمضامين الحياة الاجتماعية والفكرية وللمشاكل النفسية)[2].

وهكذا نرى أبا ماضي يقف من الإنسان موقف التهوين من شأنه، و لكنه مع ذلك ومع أنه ينطوي على ألم كظيم من الحياة، لجهله التام بالبداية والمصير، (ينوط بالإنسان دورًا في المجتمع لاينبغي أن يتخلى عنه، ويستحثه على البذل والعطاء، ومساندة الجماعة)[3]، ومع ذلك فإن نواة الرومانتيكية لم تفارق أبا ماضي، كما أن الحس الاجتماعي نما في نفسه مع بدء استقلاله الفني، ومرّ في شعره بفترة القلب، وهي فترة رومانتيكية خالصة، فكان كل شيء في حياته ملونًا مسحورًا، وهو في نظرته الاجتماعية متبصّر عميق، ويحس بالظلم الاجتماعي الذي أدى إلى تولد صراع بين عاطفته وفكره[4].

وقد عالج ميخائيل نعيمة كثيرًا من القضايا الاجتماعية في أعماله الشعرية، وكان أبرز صراع في وجوهه المختلفة هو الصراع مع المجتمع، أما أسلوبه فقد اتسم بسلامة الألفاظ ووضوح العبارة؛ وعمق الفكرة فهو يعمد إلى الواقعية إلا إذا لجأ إلى الرمز، فإنه يمزج رموزه بالواقعية فتصبح أكثر قوة ونفاذا، ويجيش فيه من تعاطفه الألم الإنساني، وتفكيره في تركيبة المجتمع الحديث، يقول:

**هَمَسْـــتُ سرًّا  في روح روحي**
**يَاروح غَنّـــي  وَلا تَنوحـــــي**
**فَالعُمر لَحْـــنٌ  إذْ تَسمعينَـــــهْ**
**تعِينَ مِنـــــهُ  مَاتَنْشدِيْنَـــــهْ**
**وَالعَيشُ حَقْـلٌ  تَسْتَثمرينَـــــهْ**

---

[1] - أدب المهجر، د. عيسى الناعوري، ص386.
[2] - كما ورد في حركة التجديد الشعري في المهجر، د. عبدالحكيم بلبع، ص174، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص188.
[3] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص263.
[4] - ينظر الشعر العربي في المهجر أمريكا الشمالية، د. إحسان عباس، د. نجم يوسف، ص100.

**يَعْطيك مِمّـــا تَسْتَودعينَـهْ[1]**

يقول الدكتور أنس داود حول هذه القصيدة: (وهي عاطفة عامة، ولاتحسم قضية اجتماعية، وباستثناء قصيدة (أخي) يظل شعر نعيمة في عزلة عن المجتمع، وموقف (توحد) وانفراد إزاء العالم...لانرى فيه إلا لمحة أو لمحتين توحيان بأن على الإنسان أن يغرس المحبة أينما حل، وأن يعطي من ذاته للحياة لأن الإنسان يأخذ من الحياة -في الحقيقة- على قدر ما أعطى)[2].

وقد التمس ميخائيل نعيمة هذه القضية بحس إنساني مرهف، وألم بها إلمامًا فلسفيًّا في سياق حديثه عن أولئك البائسين الذين يحشدون الأموال ويكدسونها ويبذلون في سبيلها كل عرق النهار وكد الليل، وليس في نفسه حقد على هؤلاء الأغنياء لأن له غنى من نوع آخر ليس من هذا النضار الذي يجمعون.

**يَا حَاشِد الأمْوَال فلْسَـــــًا إلى**
**فلسٍ يَكدّ اللّيلَ قَبْلَ النَهَـــــار**
**أيّامُه صفرٌ كأعْوَامِـــــــــه**
**لا لَوْنَ فِيها غَيرَ لَـون النَضــار**
**عَمْيَاء تَجْري حَيث لاتَـــدري**
**لاَ والّذي الأقْدَار خدّامـــــــه**
**مَا فِي فِؤادي غَصّةٌ مِن غَنَــاك**
**إذْ قَدْ حَبَاني الحَظُّ بَعضَ الغَنْــى**
**يَا صَاحْبِي مِن غَيْرِ مَا قَدْ حَبَـاك**
**فَأحْشدْ وَلاَ تَشْفق عَلى فَقِري[3]**

وفي حدود تفهم شعراء المهجر لمشكلة الفقر في المجتمع، دعا الشاعر القروي كثيرًا إلى الإحسان وذم البخل، ومدح الجود والعطاء، ومن أجمل ماقاله:

---

[1] - همس الجفون، ميخائيل نعيمة، من قصيدة (أنشودة)، ص65.
[2] - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 372.
[3] - همس الجفون، ميخائيل نعيمة، من قصيدة (لو تدرك أشواك)، ص31.

مِن حَبَـــةَ قَمْح أتَخذْ مِثل النَـــدَى ... يَا مَنْ قَبضْتَ عَن النَدى يُمْنَاكا
هِي حَبةَ أعْـــطَتْكَ عَشْرَ سَنَـــابل ... لِتَـــــــجودَ أنْتَ بِحبَة لِسَواكا
حَلَمْت بَأنْ سَتَعِيش فِي خبْز القُرى ... فَتَراقَصَـــتْ لِلمَوتِ نَحْو رحَاكَا
وَكَأنَما الشَق الذي فِي وَسَطهـــــا ... لَك قَائِل: نصْفِي يَخصْ أخَاكَا[1]

تقول الدكتورة نعيمة مراد محمد في كتابها العصبة الأندلسية: (لم أجد أرق من هذه الأبيات يحث فيها على الإحسان والجود متمثلًا بحبة للقمح)[2].

أما الشاعر زكي قنصل فقد كان أول من يضيف لمسة جديدة إلى النزعة الإنسانية والمشكلات الاجتماعية لشعر المهجر، وقد تمثل بمجموعة قصائد تصور أبناء الطبقة الكادحة الذين يتفصد جبينهم بالعرق وتلهث حياتهم كدًّا وتعبًا، ويسهمون بأوفر نصيب في بناء الحياة الإنسانية كماسح الأحذية والبناء والعتال وبائعة الزهر، وغيرهم من المشتغلين بالمهن الشريفة النافعة، كما يقول الشاعر، الذي ينكر على بعض الناس أن يسموا هذه المهن بالمهن الوضيعة، فقد أحس الشاعر بآلام هذه الفئة الكادحة من البشر، فحاول أن يصور حياتها في شعره، ويعبر عما تزخربه نفوسها من طيبة وحب للحياة، وها هوذا يقدم لنا (بائع السوس):

حَمَلَ الشَّرابَ، وَطافَ في البشرِ ... يَـــــاربِّ سَـــلِّمْه مِنَ الخَطَرِ
يَكْفِيه أنَّ الشَّمْسَ تَجْلِـــــــدُه ... أَبَـــدًا بَـــأسْواطٍ مِنَ الشَّرَرِ
فإذا أتّقَى بالظلِّ لَفْحَتهـــــــا ... هبّتْ عليه الـــــريحُ مِنْ سَقَرِ
هَاضَتْ جَناحَيهِ الصِّعَاب فَلَـــمْ ... يَـقْعُد، ونَـــاشتـــــه فَلَمْ يخرِ
مَادامَ في عَرِنينهِ شَمـــــــــمٌ ... فَـــلْتَعْصِفِ الأهـــوالُ وَ لْتُثَرِ
يَالقمةً بِدمائِـــــــــهِ انْغَمَسَت ... لَم تَتْرُكي مِنْهُ سِـــوَى أَثَرِ[3]

وعلى هذا النحو تسير قصائده، منضد الحروف، ماسح الأحذية، المعلمة، بائعة الزهر، بائع الجرائد، العاملة، الخباز، الشرطي، الفلاح، العتال، وإلى غير ذلك من المهن.

---

[1] - ديوان القروي، رشيد سليم الخوري، ص710.
[2] - العصبة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص146.
[3] - الأعمال الشعرية الكاملة ديوان زكي قنصل، ص588، الناشر عبدالمقصود محمد سعيد خوجة، الطبعة الأولى، جدة،1995.

ولامشاحة إذن في أن الشاعر زكي قنصل قد أضاف بفرشاته لمسة جديدة إلى لوحة الشعر المهجري...وإذا أمضينا أكثر في قصيدته السابقة (بائع العرقسوس) نراه ينشد:

**يَـــــا بَائعْ الترياق يَسكبْه سُوسَا يَمُـــوجُ بِنَكهَة الـــزَهْر**
**لاَتَشك دَهْرك فَهُو فِي صَمِم أو تَـــــرج جَارك فَـــهو بطْر**
**المَالْ لايَجْدي إذاَ انْحَـــدَرَت نَـــــــفْس الغَنْي بِـــكُلِ مُنَحَدر**
**إنّ السَعادةَ أنْ تَنَـــــام على أمَـــل وَأن تَصْحـــو عَلى وَطْر**
**كَم فِي قصُور النَاس مِن عبر لَـــــو كُنـــت تَســبُرُ غَاية العَبر**
**لاَ يَخدَعَنّك حُسنُ مَظهرهـــا فِي الفَقـرِ شَيءٌ لَيسَ في الحَجر**

***

**جَلبَـــابِك المَصنوعُ مِن وبْر أزْهَـــى مِن الدِيبـاج فِي نَظَري**
**وَعَـويلُ صَوْتِكَ فِي خشُونَتِهِ أحْلَى أغَـاني البَدو وَ الحَضَر[1]**

وعندما نتحسس من موقف الشاعر من بائع العرقسوس في هذه الأبيات نحس بأنه يحمل لنا خبرة ليست جديدة، لأنها خبرة عتيقة في شعرنا العربي وفي نظرة الأقدمين إلى الحياة، والشاعر يسير إلى تحبيب الفقر إلى الفقراء وكذلك مدح البؤس، ولكن مع ذلك فقد استطاع أن يخفف من آلام المجتمع ولو بأقل شيء ممكن، وهو يرى أن الحياة قسمة عادلة بين الفقراء والأغنياء ويقول في مطلع قصيدة (ماسح الاحذية):

**فِي وَجنَتَيهِ طَلاقة وَتَـــــورّد وَعَلى أَصَابْعهِ خِضاب أسْود**
**ضَاقَتْ بِهِ الدُنْيا فَلَمْ يَحْفَلْ بِها شَتّان عَبدٌ فِي الحَياة وَسَيّد[2]**

وهكذا نرى شعراء المهجرقد تناولوا الموضوعات الاجتماعية بدافع إصلاح, وحثّوا على الفضائل ونفروا من الرذائل، ومنهم من وظف الأسلوب المباشر في نقد سلبيات المجتمعات.

فشعراء المهجر جميعًا نازعون إلى تغيير المجتمع، وغير مبالين بالمتوارث من تقاليده، أما التقاليد الدينية فكان موقفهم إزاءها أشبه ما يكون بالثورة عليها، والخروج منها

[1] - الأعمال الشعرية الكاملة ديوان زكي قنصل، ص564.
[2] - السابق، ص586.

كما ذُكِرَ سالفًا في بداية هذا الفصل، فهم يبشرون في شعرهم بمحبة الإنسان والارتباط بالمجتمع البشري، ويقفون من مشكلة الفقر والغنى موقفًا رومانسيًا حالمًا، فيدعون الغني إلى الجود والكرم، ويكون التناول -غالبًا- بتحديد الدّاء وتشخيص السّبب, واقتراح العلاج والدواء.

وهذه النسبة الكبيرة من المشكلات الاجتماعية التي تكلم عنها شعراء الأدب المهجري دليل على حرصهم الشديد لتوجيه المجتمع إلى سبيل الرشاد، فقد كانوا على صراعٍ مستمر حتى آخر نفس من أجل الغلبة على العادات والتقاليد البالية التي غرست في المجتمع، فقد ساعدوا المجتمع على نهوضها وازدهارها؛ وذلك عن طريق لغتهم الواضحة المؤثرة التي تركز على مخاطبة العواطف، ودعم الفكرة بالحجة و الحكمة مع الأخذ بأساليب الإقناع لتحقيق أهدافهم، واستغاثة المجتمع.

(وقد قوبل المجتمع الشرقي بهجومٍ لاذع من قبل شعراء المهجر ونددوا بلا هوادة بما تردى فيه من صفات التواكل والتخاذل، وقد نبذوا الرواسب البالية المتوارثة ورفضوا قبول المسلمات الفكرية والاجتماعية السائدة واضعين ذلك كله على محك المنطق وتحت شمس الفكر)[1].

وكذلك استطاع هؤلاء الشعراء أن يشخصوا الأوضاع, و يشيرون إلى العلاج, لكن مع ملاحظة أن شعراء المهجر الشمالي كانوا أقل تطلعًا إلى المشكلات الاجتماعية من شعراء المهجر الجنوبي، وقد يرجع السبب إلى ما تطرق إليه الدكتور أنس داود في كتابه أدب المهجر حيث يقول: (شعراء المهجر الشمالي قد كثر في شعرهم الحديث عن النفس، ورصد خلجاتها وانفعالاتها....نتيجة للتيار التأملي الذي أشاعته كتابات جبران ونعيمة....وقد جرفتهما أزماتهما النفسية، فتقلصت الاهتمامات الاجتماعية عندهما، أما في المهجر الجنوبي فقد شُغل شعراؤهم بالعلاقات الحية المباشرة بين الفرد والمجتمع، فلم يوجد فيه كثيرًا الإحساس بإنغزالية الفرد عن المجتمع وبذاتية عالمه وانغلاقه على نفسه، بل وجد فيه الإحساس بالفرد عن الإنساني كوحدة من وحدات المجتمع تتفاعل معه، وتنفعل بإهتماماته،

[1] - ملامح الشعر المهجري، د. عمر الدقاق، ص241.

وتنشغل بقضاياه.. بدليل أن أضخم دواوينهم هو ديوان الشاعر القروي حيث تناول في مئات القصائد في حديث عن المجتمع العربي ومشكلاته، وكذلك عن المجتمع المهجري)[1].

أو قد يرجع إلى مدى عمق نظرتهم إلى هذا الموضوع ونسبة تفاوت من شعراء المهجر الشمالي و شعراء المهجر الجنوبي من حيث درجة إدراك هذا السبب والتعبير عنه، ففي حين كان تصوير بعضهم لمسألة الحيف الاجتماعي تصّويرًا معتمًا ضبابيًّا جاءت رؤية بعضهم الآخر لها واضحة، ونتيجة تحليل موضوعي للمعطيات الاجتماعية والاقتصادية، فقد نرى أن بعضهم فقط يكتفي بالإشارة إلى إحدى الظواهر البارزة من القضايا الاجتماعية[2].

إلاّ إنه من خلال التركيز أكثر على أشعارهم من خلال هذا الفصل، ظهر أن رأي الدكتور أنس داود هو الأرجح، فقد كانت هناك اختلافات جديرة بالذكر بين شعراء المهجر الشمالي وشعراء المهجر الجنوبي.

---

[1] - التجديد في شعر المهجر، د.أنس داود، ص232،233.

[2] - ينظر أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم مؤثرات الأجنبية فيها، فؤاد فرفوري، ص171.